اهتداء كاتبة روسيّة ارثذكسيّة الى الكثلكة

مقالة ترجمها رأساً عن كتابها المنشور بالروسية

الاب رافائيل نخلة اليسوعيّ

تمهيد المترجم

على خلاف ما يزعمهُ جمهور الكاثوليك بل الارثذكس انفسهم ليست في حكم العدم حركة اهتداء الروس المنفصلين الى الكثلكة منذ اوائل الجيل المنصرم ولاسيما في اثناء الحرب الكونية الطاحنة وما وليها من الاعوام. ولئلا يُنسب الينا رمي الكلام على عواهنهِ نزيد رغماً من ضيق المقام اثبات قولنا بالشواهد التاريخية التي لا محيص من التسليم بصحتها

نشر الفرنسي رونه دي جُرنِل (Rouet de Journel) كتاباً عنوانهُ: «مدرسة لليسوعيين في بطرسبرغ» لخّص فيها استنادًا الى اوثق المصادر تاريخ ذلك المعهد القصير الحياة حيث تأسس في السنة ١٨٠٠ وزال من الوجود في ١٨١٦. على ان السبب الوحيد لالغائهِ بأمر الحكومة الروسية وطردها اليسوعيين بل نفيهم من العاصمة الى بلاد قاصية هو كونهم اوجدوا ليس بالتعليم الديني المباشر — فقد كان محظورًا عليهم من البدء — بل بواسطة نفوذهم وأمثالهم، حركةً شديدة في كل طبقات الأمة حتى بين اعيانها، حركةَ اهتداء من الارثذكسية الى الكثلكة. فارتعب ذوو الربط والحلّ من انتشار ذلك التيار الهائل على كل العاصمة ثم على الاقاليم ولم يجدوا سدًّا أمنع في وجههِ من الاقفال القسري لتلك المدرسة الشهيرة الحافلة بابناء عِلْية الناس. هاك على سبيل المثل اسماء بعض مشاهير اولئك المهتدين: الامير ديمتري غولِتسين وقد صار كاهناً ثم توفي سنة ١٨٤٠ وهو مُرسَل بين القبائل المتوحشة باميركة الشمالية — الاميرة أليكسيس غولِتسين وبنتها اليصابات — الاميرة حنة بَرْيتِنسكي = الاميرة ڤاسِلْتشيكوف واختها الآنسة پروتسوف — الاميرة لِيزة كوراكين — الكونتة

رَستيتشين — الكونتة تُلستوي وبنتها التي صارت فيما بعد الاميرة لوبومرسكا — السيدة بيتشين امرأة قائد ، الكاتبة الشهيرة التي لم تهتدِ الى الكثلكة الّا بعد الدروس العميقة — اسكندر غولتسين ابن حاكم بارُسلاف

كل هذه الاسماء إنْ هي الّا بعض من عدّ ، ومن الغرابة بمكان ان تلك حركة الاهتداءات الشديدة قد وُجدت حينذاك في عاصمة كبيرة لا يتعدّى فيها عدد الكاثوليك نحو خمسة آلاف !

امّا حركة اهتداء الروس الارثذكس في اثناء الحرب الكبرى وبعدها فقلّما وجد لهُ نِدّ في تاريخ العالم ، اليك بعض الادلّة على ذلك :

اولًا جاء من روسيّة الى فرنسة في بحر ١٩٢٣ نبأ عن مصدر موثوق بهِ ان ٢٣ من الاساقفة الروس الارثذكس قد اهتدوا الى الكثلكة في سجنهم قليلًا قبل اعدامهم

ثانياً في السنتين ١٩٢١ و١٩٢٢ قد اهتدى الى الكثلكة اكثر من ستين من المهاجرين الروس الارثذكس النازلين اوانئذ في الاستانة

ثالثاً يوجد بين الروس الارثذكس المهتدين في الاعوام الاخيرة نفرٌ من اوسع الناس جاهاً واغزرهم علماً . فانّ فيهم مثلًا الاميرين بطرس دُلكنسكي وسرجيوس أُوروسوف وقد صار هذا يسوعيًّا ثمّ الكاتب هَنسكي وقد دخل في الرهبانية ذاتها — رجيدينوف كان قبلًا من اساطين العالم القضائي وهو الآن في مدرسة اكليريكية يستعدّ للكهنوت — والسيد سيباغين العضو السابق في «الدوما» اي مجلس النواب الروسي — والارشيمندريت السيد سرجيوس دابتش . ومن غرابة امره انهُ اوّل حبر روسي ارثذكسي اهتدى الى الكثلكة منذ اكثر من جيلين وقد سبق اهتداءهُ دروسٌ عميقة طويلة فلا بدع أن دهش كل العالم الكاثوليكي من ارتدادهِ فافاضت في وصف تفاصيله امّهات المجلّات الكاثوليكية في الخافقين(١ — نذكر اخيرًا بين اولئك المهتدين الاعلام الكاتبة الروائية المعروفة السيدة نادينة دي لپو دانيلفسكيا (Nadine de Lappo-Danilevskaïa) كان اهتداؤها من نحو عامين وقد نشرت

١) بينما نحن نسطّر هذه الاخبار واذا ببرقية اميركية اثنتا ناشرةً خبر اهتداء السيد الروسي دزوبائي (Mgr Dzoubaï) اسقف نيويورك الارثذكسيّ الى الكثلكة

بباريس في اوائل ١٩٢٤ كتيباً عنوانه «المهاجرون والكثلكة» ترجمناه حرفياً من الاصل الروسي ولم نزد على متنه سوى عناوين الابواب التي قسمناه اليها لزيادة الايضاح وتسهيل القراءة . نطلب الى المولى ان يبارك على ترجمتنا الصعبة ويجعل منها فخراً للكاثوليك وهدى لاخوتنا الخارجيين عن الحظيرة البطرسية

تعريب رواية الاقنداء عن الاصل الروسي

المقدمة

اني اتناول القلم باسم العدل وليس بقصد ان ابرهن على شيء ما او ان اقنع الناس بامر خاصّ ، فان كل البراهين او طرق الاقناع عادمة الجدوى اذا استخدامها فيما يُلامس اخفى واعمق قوى النفس ، اعني دينها . الدين خارج عن كل المعارف والنواميس البشرية لان كلًّا منّا حاملٌ في ذات نفسه ناموس الدين (١) .

في الآونة الاخيرة شرعت المسائل الروحية تهيّج انفس المهاجرين الروس فضلًا عن هؤلاء الروس الاشقياء الذين حسب الارادة الالهية لا يفتأون يتألمون في الوطن . وقد طالما استحقت تلك المسائل ان تنال في حياتنا المقام الاول الذي يخصّها وفقاً للعدل . من المجادلات والحملات العنيفة التي يصوّبها الارثذكس ضد الاكليروس الكاثوليكي — وقد جعلت الارادة الالهية المهاجرين الروس في تماسّ معهُ — سوف تخرج الحقيقة في نهاية الامر ظافرةً . فانّ انشقاق الكنيسة هو بإذن الله ولا يستطيع ان يكون بارادته اذ قد حدث انفصال كنيستنا المستمرّ عشرة اجيال ما بين العداوة والمكايد والوشايات والمخادعات السائدة في البلاط البوزنطي وبين الاكليروس الساعي في ارضائه

قد تحوّلتُ او على الاصحّ ، قد رجعتُ الى الكنيسة الكاثوليكيّة لانّ المولى

---

(١) في هذه الاقوال على حرفيّتها مغالاة واضحة . انما مقادها ان العلم والتقيب وحدهما لا يكفيان للاهتداء الى الدين الحق بل يجب ان تُراد عليهما نعمة الله المقدّمة دائمًا لكل ذي ارادة صالحة لأنّ تعاليم الدين القويم تنطبق على نور العقل . وقد بيّنت الكاتبة كل ذلك في الفصل التالي

امرني بذلك ، لان ضميري اقتضى ذلك . حيث كنت لا ارضى بالعداوة لا في القليل ولا في الكثير . ثقُلَ دائماً كلَّ الثقل على نفسي ما اختبرتُهُ من عداوة كنيستي ، التي انسبها المخلص الوديع (١ ، للكنيسة الكاثوليكية . فتجديد اتحادي بالكنيسة المسكونية انما اقوم بعمل الخضوع لاوامر المسيح بل تأتي نفسي عمل السالة لها

١ً العلم لا يكفي للاهتداء الى الكثلكة ان لم يُقرَن بالصلاة

مَنْ يَدْعُهُ صوت الله ينقَدْ طائعاً الى هذه الدعوة مهما وَعُرت الطريق . لو كان كل الامر منوطاً بمجرَّد البحث المُحكم في تاريخ الكنيسة لاتَّضح لزوم كون معرفة الوقائع التاريخية الاكيدة تحثّ كثيرين على العودة الى حضن الكنيسة المسكونية . ومع ذلك فلا مراء انّ بين الروس اناساً علماء مطّلعين جيداً على التاريخ الكنسي وعقائدنا الاساسية غير الحائدة في حقيقتها عن عقائد الكنيسة الكاثوليكية اعني «الارثذكسية» (٢ كما كانت ولا تزال حتى الآن . على ان كثيراً من اولئك العلماء يبقون في كنيستهم القوميَّة . فالمنزى انهُ يوجد شيء غير العلم قائدٌ بنا . هذا الشيء هو الايمان الذي لا يهاب احكام الناس ولا المُحقرات ولا التُّهم الباطلة في كونه يبيع ضميرهُ هو الايمان الذي لا يخاف سوى الله ويقوّي المرء لاحتمال المحن الارضيَّة لاجل ادراك ما يلحقها من بدائع السماويّات

لقد انجلت الحقيقة لفلاديمير سولوڤياف (٣ ، نبراس العلم ، في حين درسه التاريخ

---

١) تريد الكاتبة بكنيستها اوَّل اهتداء الروس الى الايمان اذ كانت كنيستهم كاثوليكيَّة متحدة مع رومية وثبتت على ذلك زمناً (راجع المشرق ٢٠ [١٩٢٢] : ٧٢٢-٧٤١

٢) هذه اللفظة مشتقة من جذرَين يونانيين معناهما القويم الايمان . ولذلك فالكنيسة الكاثوليكية ، لكونها كنيسة المسيح الوحيدة ، جديرة بان تُسمَّى ارثذكسية دون سواها . الكاهن الكاثوليكي قبلاً قبل اقوال التقديس يصلي في القدّاس « من اجل كل الارثذكس » مريداً هذه اللفظة كلَّ الكاثوليك . لكن اخوتنا المنفصلين قد لقَّبوا ذواتهم زوراً بهذا اللقب ولذلك نتحاشى نحن عادةً نسبته الى ذواتنا لمجرد دفع الالتباس وسوء التفاهم . وقد اشارت الكاتبة المضيفة الى كل ذلك بجعلها لفظة «ارثذكسية» بين قوسين مزدوجين كلَّما استخدمتها في الكلام عن الكنيسة الكاثوليكية

٣) احد اشهر علماء الروس الارثذكس المهتدين في الجيل التاسع عشر . من اخطر مؤلفاته

الكنسي واللاهوت ، وبعد طبع مؤلفاته البرهنة على حقيقة الكنيسة الكاثوليكية قد اتحد هو ذاته بها . فلا لعمري من أسند حجتهُ في صوابيَّة الايمان الى اساس العلم اعني المعرفة البشرية وذلك لانه يمكن المرء حسب رغبتهِ وجود مناقضة لاي برهان كان بيد انهُ من الممتنع وجود حقيقتين متضادتين (١) . وعلى ذلك فمن يريد ادراك الحقيقة لسعادة نفسهِ فهو بالصلاة الحارَّة يدركها لا محالة ، فقد قيل لنا : « اطلبوا تجدوا ، التمسوا تُعطَوا » . المعتقد اعتقادًا مقدَّسًا بصحَّة ايمانه وهو يصلي ويتألم في روحهِ من اجلهِ فليقَّ فيهِ مطمئنًّا . ذوو الايمان العميق هم في جوار المولى وهو عارف مَن يحسُن لديه ان يقوده الى الحقيقة على طريق معقَّدة ومؤلمة

٢ لا غنى لنا عن كنيسة المسيح الواحدة فيلزمنا معرفتها

نُسلِّم بان الدَّولة يستحيل وجودها بدون شرائع وفي الآن ذاته كثيرون يرذلون الكنيسة مع انها الشريعة المنظورة لادراك ملكوت الله المقدَّس وغير المنظور . لا غنى عن الكنيسة للنفس المصلِّية الباحثة عن الله ، فان المخلص ذاته اشار الى تلك الضرورة بقوله : « سأبني كنيستي وابواب الجحيم لن تقوى عليها » . من لا يؤمن بالوهيَّة المخلص فمن الواضح انه لا يعترف بوجود الكنيسة . من اجله سنصلي نحن المؤمنين بلاهوت المسيح حتى يشفي مخلصنا عمى الذين لا ينظرون

الطائشة في الاراء هي نتيجة اهمالنا لما يحقّ له المقام الاول في حياة كل منا اعني في ديننا المنحصرة فيه ليس فقط ابسط واعمق فلسفة ، بل اسمى وارقى انواع الجمال الذي اوحى الى النوابغ ما اوحاهم ! المؤمن ايمانًا حقيقيًّا متبحِّر في آرائهِ الدينيَّة لعلمه بكثرة ما خفي علينا من عمق الاسرار الالهية المحفوظة في الكنيسة وبكثرة

الكنيسة كتاب عنوانه « روسية والكنيسة الجامعة » بيَّن فيه باجلى البراهين فساد كنيسته الاصليَّة ولاسيما بانقيادها الاعمى الى سلطة القياصرة وتراجم بتمجيدهم ويتلاعبون بها كيفما شاؤوا وهي راضخة صامتة !

(١) هذه الحالة تبيِّن فساد الاقوال السابقة اذا أُخذت بالمعنى الحرفي . اذن مراد الكاتبة ان الانسان الخاضع لشهواته المنقاد انقيادًا اعمى لاغراضهِ عاجزٌ كل العجز عن ادراك اقوى البراهين واسطعها . ففي وسعه ان يجد لكل منها مناقضًا . وما كل ذلك الا لكونه اعمى او بالاحرى متعاميًا . ولا اسهل على من يغمض عينيهِ في رائعة النهار من ان ينكر وجود الشمس !

لزوم الصلاة لنا حتى ندرك عتبة دار النور

لا سبيل الى انكار انهُ ليس العلم والفن فقط بل والصناعة البسيطة تقتضي التعليم وبازدياد عمق هذا وإحكامهِ يزيد اتساع الآفاق المنكشفة لدينا في ميدان تعلُّمنا . نحن نحبس ذواتنا عن المجادلة والبرهنة على اي شيء في موضوع قلّت معرفتنا لهُ . فلماذا نرى في ميدان الدين اناساً قد استظهروا على الاكثر صلاتين او ثلاث صلوات وهم طائشو الافكار في الكنائس بل بعضهم غائبون عنها بالكلية ، ولم يطالعوا كتاباً لاهوتياً واحداً ، ومع ذلك يعتبرون ممكناً جدالهم واقامتهم الحجة في موضوع ديني ؟ وان نسبوا بعض الاهمية الى جسارتهم او بالاحرى الى جهلهم ، فما ذلك الّا لعجزهم عن تحليل حالتهم النفسيّة في ذلك الجهل . بينما نخجل من قلة تخرُّجنا في العلوم الشائعة قد تعوّدنا ترك التخرّج الديني جانباً والاكتفاء بابسط المعارف الابتدائية . في حين عدم خجلنا من فرط ضيقة آرائنا نتكاسل في تعلُّم الدين الذي علّمنا اياه المسيح . نحن مسيحيون كذبة حيث نُهمل اوامر المسيح بل انّ كثيرين منّا موقنون بانه يسوغ لكل واحد ان يعتقد ما يشاء ، حيث لا حاجة الى اية كنيسة في امر الايمان . على ان انقى انواع الايمان ، ان لم تفقده الكنيسة ، يستطيع ان يربطنا ليس فقط بجوهر الخير غير المنظور بل وبجوهر الشرّ غير المنظور . فلكي نرتبط بالمولى بواسطة الايمان يلزمنا التمثل بالمثال الذي اراناه اياه لادراك تلك الغاية (١

تسمية المرء ذاته نصرانياً وكونه ذلك ليسا شيئاً واحداً . فالاول انما هو صورة خارجية ، اما الثاني ففيهِ محتويات روحيّة . لقد كثر فوق الحدّ بين ظهرانينا من هم غير حارّين ولا باردين بل فاترون . فان آمنّا فايماننا ليس حارًّا ولا متحمساً . وان لم نؤمن فلا تُهيّج نفسنا الشكوك والابحاث ، بل تبقى بليدة في معرفة عدم ايمانها مفضلةً ان تمشي بعينين مُغلقتين الى عتبة الابدية على ان تطلب النور لان كل المطالب تقتضي بذل بعض القوى الروحية

---

١) ما هذا المثال الالهي سوى الكنيسة الكاثوليكية التي قال مؤسسها سيدنا يسوع المسيح لاوّل اساتذتها وهم الرسل : « اذهبوا وتلمذوا جميع الامم . . . كل من يؤمن واعتمد يخلص ومن لا يؤمن يُحكم عليه »

٣ حملات الروس المنفصلين على اخوانهم المهتدين الى الكثلكة

السواد الاعظم من القائمين القاعدين عند انتقال اخوتهم الى الكثلكة ليس لهم ادنى إلمام بما هي الكنيسة الشرقية ولا بما هي الكنيسة الكاثوليكية المكونية « الارثذكسية» (١ . اما مزيدات احتجاجهم فمؤسسة على كون الوطني الروسي — وما أدخلَ الوطنيَّةَ في هذا الامر ؟ ! — ملتزم بعدم هجران كنيسته ، وعلى انَ روسية من المحال ان تكون الّا ارثذكسية ، وانَ الكاثوليك جميعهم يصيدون ارواح الروس ويشككونهم (لعمري ايمكن تشكيك المؤمن ايماناً حقيقياً ؟ !) . والآن يُزاد ايضاً على ذلك ان الكاثوليك يدفعون حتماً من النقود لمن يتحوّل الى ديانتهم وان الكنيسة الكاثوليكية قد تداخلت دائماً بشؤون الدول في حين بقاء كنيستنا على الحياد

لماذا من يخطو الى الكثلكة من الانكليز او اليابانيين او الارمن او اليونانيين لا يغيّر صورته القومية ولا يزال وطنياً محباً لوطنه ؟ لماذا يتحتّم على الروسي المنضوي الى الكنيسة الكاثوليكية ان يصير غريباً في بلاده ؟ من قال ان روسية لا تكون الّا مستقيمةَ الايمان ؟ اليس ذاك الذي اقنع روسية انها قديسة وان الشعب الروسي حاملُ الله في صدره ؟ ولكن بايّ المظاهر تتجلى قداسة روسية ؟ ألّلنا جميعنا نحترم اوامر المسيح اكثر من سائر الشعوب ؟ مَن احبَّ الله احبَّ قريبه ايضاً ، فهل اضطرمت في قلوبنا محبة القريب ؟ هل نُبدي حاضراً هذه المحبة ولو بعضنا لبعض ؟ ولِمَ ندّعي كون شعبنا حامل الله في صدره ؟ هل نسينا الثورة وضروب التوحش في « كالوش وترنوبول» ؟ (قد وُجدتْ في تلك الانحاء عند لَوْذ الجيش بالفرار) . اني لأرتئي ان شعبنا لا يختلف عن اي شعب آخر . ففي حالة السكينة هو صالح ، اللهم في مجموعه ، غير انه قاس وسهل الاستسلام لكل ضروب الخداع السيّء . أفهل من المستحيل محبّة المرء لوطنه بدون اسدائه المدائح الكاذبة وتكليل هامته بهالة من المجد موهومة ؟

الاكليروس الكاثوليكي الذاهب بيد الاحسان الرحبة لاستقبال المهاجرين المحتاجين الجائعين يبرهن على محبته المسيحية للقريب ، والخير الذي يصنعه محض

(١ راجع الحاشية الاولى الملتقة على الفصل الاول

لكونه مصنوعاً باسم الله وفي سبيل محبته . اما كونه يخدع ويشكك ويؤجر المنتقلين الى الكثلكة فانا التي لم يشككني احد ولم يُدفَع لي درهم واحد سأقول فيما يلي قولاً موجزاً في هذا الصدد . أما الجواب على كون الكنيسة الكاثوليكية قد استغلت دائماً بشؤون الدول ، فيمكن ملاحظة انه بمجرَّد فضل الاحبار الرومانيين الحاملين على اكتافهم كل وقر القرون الوسطى ، بمجرد فضلهم هم المُشرفين بسلطتهم على الكنيسة وعلى الدول والملقحين التمدن المسيحي في الطبيعة البشرية المتأصلة في الوثنيَّة ، بمجرد فضلهم هم خلفاء الرسول القديس بطرس ، قد صانت الكنيسة وصايا المسيح في نقاوتها السليمة ولم تتغلب عليها ابواب الجحيم . لعمري ما الذي كان تزل بهذه الكنيسة لو ان احبارها الاعظمين بقوا على الحياد واسلموا سلطة الدولة بين ايدي حكَّام لم تزل ارواحهم وثنيَّة على توالي العصور الطوال ؟ لتشريب الدولة بروح المسيح كان من اللازم وجود حاكم من ذات الكنيسة ، حاكم نال حظَّتهُ من نعمة الروح القدس التي وعد بها المسيح ، حاكم حائز على جلال نفوذ السلطة

٤ اضاليل الكنيسة الروسية المنفصلة

ما الذي كانت صارت اليه الكنيسة الشرقية لو ان رُعاتها لم يتذلَّلوا أمام عواهل بوزنطية الذين لم تزل مستحكمة فيهم روح الوثنية وعوائدها ، لو لم يقابلوا سيئات اولئك الحكام بفرط التسامح ، لو لم تُصِبهم عدوى المجد الباطل وحبّ السلطة ؟ وايمُ الحقّ لو ثبتوا في ما يقتضيه مركزهم من سمو الأخلاق على مثال البطريرك اغناطيوس الذي سجنهُ في احد الاديار فوطيوس بمكايده وشاياته الكاذبة ، لكانت كنيسة المسيح واحدةً حتى الآن ، ولم تشتدّ في روسيَّة الفتاة بفضل الكهنة اليونانيين(١ العداوةُ البلهاء نحو الحبر الاعظم رئيس الكنيسة المسكونيَّة . بينما كانت هذه العداوة غير الخليقة بروح النصرانيَّة تُلقَّح وتُنمى في افئدة الروس فقدت الكنيسة الروسية شخصيتها واخضعت نفسها بادئ بدء لبطرس الاول ماغي البطريركية ومستعبد الكنيسة ، ثم اضاعت بقية سلطتها حيث اعترفت بسلطة السينودس

---

١) الذين بشَّروا روسية بالدين المسيحي فأسموها اضاليلهم مازجين السمّ بالدسم

الاداري الذي يدير فيه شؤون الكنيسة رجالٌ علمانيون . فالكنيسة في خطتها الضيقة القومية قد جمدت جمود الموت

على ان كل ذلك حوادثُ ماضية غير قابلة الاصلاح ، اعمالٌ تركت بختم لا يُمحى اثرها على صحائف التاريخ الروسي . . . اما صحائفهُ الاخيرة التي تقلبها يد الابدية فمغمورة بالدماء والدموع وقد فاضت عليها آلام الروس الباقين في روسية والمتشتتين في كل الدنيا . حين تمرّ الاجيال من المحتمل ان يعتبر التاريخ دورنا هذا دور انهزام المسيحيين الكذبة . فاننا نحن العلمانيين الروس بعيدون كثيراً عن وصايا المسيح ، والاكليروس الروسي بقي في عماه او في عناده مصراً على الآراء الارثذكسية المتكوّنة تعمداً (١ في بوزنطية التي ضربتها يد المولى بالقصاص حيث ان كنيسة آيا صوفيا بين ايدي الاتراك منذ ١٤٥٣

٥ المحن الحاضرة ستعيد روسيّة الى كنيسة المسيح الكاثوليكيّة

العميان وحدهم لا يرون ولا يريدون ادراك ان ما يحدث في روسيّة وفي جميعنا ليس صدفةً عادمة المعنى ، وان امواج المحن الطاغية فينا انما هي آلام الجلجلة قصاصاً على خطايانا المستمرّة عدّة اجيال . فبغسلنا ادران خطايانا الارادية وغير الارادية بالاوجاع والدموع والدم نقتبل عماداً جديداً حتى اننا بروح مستنيرة وبقلب طهرتهُ الآلام والدموع نبدأ حياةً جديدة اجدر بالذين اتسموا باسم المسيح . بعد هذه اعوام صُلب روسية وتسكعنا المؤلم في البلاد الاجنبيّة وفي المساكن الفقيرة سيلزمنا في نهاية الامر الاقتناع بانّ السياسة ومنازعاتنا ومجادلاتنا القليلة النفقة (٢ وحساباتنا وتنظيماتنا ، كل ذلك عاجز امام سلطة الشرّ المظلمة (٣ سلطة ابليس ، سلطة الظلمة انما

١) تعني الآراء المخالفة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، والتمسك في صوغ تلك الآراء يعبّر عن فساد نيّة صاحبيها

٢) تعني انها لا تقتضي جهداً بانياً بل هي مجرّد هذيان وشقشقة لسان

٣) كل الامم بل كل الاديان تشبّه الحقيقة والفضيلة بالنور ، اما الضلال والفساد فبالظلمة . لذلك كثيراً ما تسمّي الكاتبة السلطة السائدة في روسية منذ بضع سنوات « السلطة المظلمة » او «القوى المظلمة» او ما جرى مجراها . ولعمري انها لم تخطئ في اعتبار ابليس ملك زمام هذه السلطة وقائد حركاتها وسكناتها

يقهرها نفوذ القداسة ليس الأ . كثيرون الغاية بين اظهرنا شرعوا يفهمون ذلك وقد بدأت بدون مراء ، ولو متأخرة ، نهضة تقودنا الى ضياء الحقيقة ، الى معرفة انهُ لاجل محاربة سلطة الظلمة الطاغية على الدول والمذابح ، يلزم ارتفاعٌ شديد في درجة قوة النور والقداسة باسم المسيح ، بل يلزم جهادٌ صليبيٌ جديد . الجيش المسيحي العرمرم المتحد الاخوي المنتعش بفكرة طاهرة ، الذي لا يُغلب ومعه قوة الصليب ، جيش الكنيسة الواحدة المسكونية ، انما بهذه القوة الكبيرة سوف يُكسر العدوّ ، فيدنو الينا فجر جديد . . . ستقوم روسيّة من قبرها مغسولة بدموع عمادها الجديد . اجل سيصير ذلك بل انهُ على مقربة منا فان المواعيد العظيمة للحركات العظيمة لَتدانيةٌ . كل من في روحه يُسلّم بانَّ كنيسة المسيح لا يمكن ان تعادي احدًا — لانهُ حيث يوجد اسم المسيح هناك السِّلم والحب — وبان الكنيسة يلزم انضمام كل افرادها في الوحدة التامّة كما كان ذلك عشرة عصور منذ تأسيسها ، كل من يسلّم بذلك ينبغي عليه ان يبحث عن طريق المسالمة (١) . من يدرك ذلك ويعترف به فباسم الشرف والذمّة لا يسعه السكوت بل انه لا يجسر عليه . . من اللازم ان يصرخ بلْ صوته في هذا الشأن حتى يسمع الصُمُّ دعوتَهُ ، الدعوة الى السِّلم باسم المسيح . . طوبى لموجدي السِّلم لانهم سيُدعون ابناء الله

٦ وصف الكاتبة لاهتدائها

اني ما زلت موقنةً ان معاداة الكنيسة لا يوافق روح تعليم المسيح على اني لم اقرأ في هذا الموضوع الّا الشيء اليسير ولم افكر قطّ في التحوّل الى الكثلكة حيث كنتُ أُجلّ ديانتي ورعاتها الذين اعرف بينهم اناساً ذوي تثقيف روحي سام . ففي العام المنصرم سمعت ببرلين احد رعاتنا يقول ان الانتقال الى الكثلكة انما هو إنكارٌ المسيح . هذه الكلمات ادهشتني فقد تعوّدتُ اعتبار كون كل العالم المسيحي خاصّة المسيح . من يوم دوّتْ هذه الاقوال في مسمعيّ بدأ في نفسي عملٌ معقّد ومؤلم . ما كنت اعرف احدًا من الكاثوليك ولم أُبحْ الى احد ببذور الشكوك النامية فيّ . ذات يوم ترك شخص ما بطريق صدفة غريبة على «طاولتي» كتاباً للمطران انطونيوس

(١) مسالمة الارثذكس للكنيسة الكاثوليكية بالانضواء اليها

عنوانهُ : محادثات كاهن ارثوذكسي مع احد الاتحاديين (١ بشأن اضاليل اللاتين قرأتهُ فكان التأثير العام مؤلماً بداعي الكلام القارص للغاية والعادم المجاملة الذي صوّر بهِ المؤلف الجدال بين الكاهنين . فكان عندي من الغرابة بمكان تصوُّري راعيَيْن لكنيسة المسيح عاريين عن التواضع بل كانهما متشاتمان تشاتماً لا يليق بركزيهما . فكان القارئ يشعر بواضح رغبة الكاتب في حثهِ على عدم احترام الخصم . كان لي الما واهانةً من انَّ مثل هذه مادَّة الحكم العميقة المعقَّدة المعذِّبة لكل قلب مسيحي قد أُفرغت في قالب تلك الفظاظة العارية عن ادنى تهذيب . في بقية تلك السنة قادني المولى قيادةً واضحة على طريق وعرة ومعقَّدة انتهت بانقلابي الى الكثلكة . لقد صلَّيت كثيراً وباستجرار زاعمةً ان قوى الظلمات تدانت الى روحي . بمقدار ازدياد صلاتي كان يزيد وضوح اظهار الله ارادتهُ لي . طلبت بصفة ادلَّة عليها اشياء كانت تلوح لي مستحيلةً ومع ذلك فقد منحني اياها

في نصف العام الاخير السابق تحوُّلي الى الكثلكة كانت معيشتي غريبةً في محتوياتها ومن الواضح ان الارادة العليا كانت توجهها الى العتبة التي كنت اظنّ قواي غير كافية لتخطيها . كنت اخاطب نفسي بما يوحيهِ عادةً العقل الهلوع : « لماذا اغيّر ديني ؟ اني اؤمن واعترف بلاهوت المسيح ، اني اصلّي اليهِ ، اليس سواء انضواني الى هذه او تلك الكنيسة ولاسيما ان العقائد الجوهرية هي هي تماماً في الكنيستين ؟ فلماذا احطّم ما ألفهُ قلبي من نعومة اظفاري ؟ أمن المعقول إسناد اهميَّة كبرى الى الظواهر ؟ كنت احدّث ذاتي بطرد الافكار المؤلمة وبطلب السلام لروحي المضطربة في حالةٍ وسطى يتضح احتوازها على مواطأة غير مستقيمة مع الذمَّة وشرف النفس . على ان العقل كان لهُ قولٌ وللروح مطلب آخر

في ذات يوم بصلاة حارَّة قلتُ للمولى اني سأؤمن بانَّ ما سمعتُ هو نداؤه ان كان يقودني الى رومة . مضى على ذلك اقصرُ الزمان وتمَّت رغبتي الشبيهة بما في قصص الف ليلة وليلة . فانني رغم التمرّي بعد غربتي من روسية عن كل الوسائل المالية وحرمان

(١ هم الروس المنفصلون قديماً العائدون بعد ذلك الى حضن امهم الحنون « الكنيسة الكاثوليكية وهم الآن الوف مؤلفة لهم اكليرس شرقي خاص . وقد اطلق عليهم كاثوليك اوربة اسم «Uniates» الذي عرّبناه بلفظة « اتحاديين »

ذاتي من ألزم الاشياء. وجدتُ ذاتي فجأة وعلى طريقة غير مألوفة، في رومة! كنتُ اعرف ايطالية جيداً لاني قبل الثورة بحثتُ كثيراً. لكني كلما اتجهت الى رومة حدث حادثٌ ما حالَ دون قصدي فكنت أرجئ سفري الى العام التالي. اخيراً وقد فهمتُ من عهدٍ عميد فهماً منطقياً حركة حياتي خطوةً فخطوة، جزمتُ جزماً واضحاً بان قد قُيّضت لي في رومة ظروفٌ خصوصية. لم يكذبني شعوري السابق اذ قادني المولى الى هذه المدينة العجيبة المقدسة لكيما احسّ من صميم روحي بكامل ألم انفصالي عن الكنيسة الوطنية التي منها غا وتقوّى شعوري الديني، ثم انظر عتبة الباب الذي من ورائه، بقوة غير منتظرة وصانعة المعجزات، قد فاض عليّ نهر من النور والسعادة كبير الى حدّ ان كل شكوكي واسئلتي المذبذبة غُرقت فيه فجأةً!

لم اجد كمال توازن النفس فقط بل كأنما انشقّ امامي طرف الستار فادركت اشياء كثيرة مما كان يظهر لي ميتاً غريباً. وبفؤادي وبروحي شبّت بلهيب احرّ محبتي لله ولكل البشر، وارتسمت امامي ارتساماً اوضح صورة كل ما يأمرنا المولى باحتماله، صورة التعامي والتصامّ عن وصايا المسيح التي لا غنى لنا عنها ولاسيما في اوقات معلومة

٧ آمال الكاتبة في اهتداء روسية الى الكثلكة

سوف يأتي اجل سوف يأتي ختام محنتنا. مثل نوم ثقيل الوطأة ستضمحلّ سريعاً اعوام الحرمان والمحقرة والشقاء. مثل ظلال الليل ستنقشع قبل الفجر عومنا المؤلمة بشأن الغد، بشأن الخبز اليومي بالمعنى الحرفي. ستنساب الاشعّة الوَجِلة اشعة الشمس الطالعة، وحينئذ، حينئذ ليس قبلاً، سيدرك اولئك الذين يعيشون ليس فقط عيشة المادّة، كم قُسِم لنا من الجهال الروحي السامي في مُرّ منفانا هنا في الغربة، وفي الغربة المعنوية لمن بقُوا اطهاراً في الوطن

في المساكن التي تحت جَمَلون البيوت او تحت طابقها الارضي في الاكواخ والسجون قد اذّخرنا في ذواتنا ليس فقط كل تذكارات حياتنا الماضية البديعة — وهي باطلة الاباطيل! — بل شهادة ضميرنا على براءتنا امام الله والناس. لم يبقَ لنا مال ولا مركز ولا اسم معروف ساطع ولا مجدٌ، فكيف يعبأ شعب اجنبي بمجد اسم روسي!...

كلُّنا ههنا متعذّرون بنفس عفر المهاجرة الكامد اللون . ولكن ، يا اخي ، حين تُطفئ في ساعة متأخرة من الليل مصباحك في حجرتك الضيقة التي لم تألف خشونتها ، وليس ادنى شبه بينها وبين رغد قصرك القديم ، حين تخرّ على ركبتيك امام الايقونة الصغيرة السالمة وحدها في انقلاب الوطن ، حينذاك سيتولّد في روحك الشعور النقي اللطيف بان فقرنا غير المعتاد وغير المقسوم لنا من الهدء بل المرسل الينا بصفة شقاء مقدّر ، بصفة محنة ثقيلة ، بأنّ هذا الفقر يُطهّر ويرفع ويُلين ويُسكّن النفس العارفة قيمتهُ . ففي فقرنا عِطرُ جمال التثقف الروحي ، بفقرنا وذلّنا وصبرنا ستغدو حافلةً صحفُ التاريخ الروسي الذي نحمل الآن وِقرَهُ على اكتافنا التعسة

انما نحن قطيع المسيح المتشتت لكنه غير ضائع ، ونفسهُ يُطهرها المسيح بالآلام . بواسطة هذه الآلام ، وقد سُقينا دموعاً ودماً ، لنتقرب الآن الى المولى بحيث قد شرعت في اعماق نفس كلٍّ منّا عمليّاتُ التجدُّد الروحي . ان كان الشعب الروسي حامل الله في صدره ، وان كان من خصائصه ان يُتمّ عملاً كبيراً سنيًّا فقد آن الأوان لذلك . حال كوننا متفرّقين ايدي سبا في العالم وفقراء بالروح ، ندنو الى الملكوت السماوي وسيعطينا المولى اياه . على انه يلزمنا ان نختم صحيفة التعذيب في حياة روسية بفعل حبّ ومسالمة الكنيسة المسيح حتى نصبح في الحقيقة اولاد الله

روسية بتقديمها للكنيسة غصن الزيتون ، رمز السلم ، ستغدو روسية القديسة . فليزهر في روح كل منا هذا غصن السلم ، فيهدينا المولى الى طريق تحقيق السلم ! قادةُ القوى المظلمة قد دهوروا وطننا في الهاوية ، قد أدرنوهُ بتقلبهم ، قد غمروهُ بالوحل والدم بل خنقوا بقهقهة شيطانية صرخات تألمه . ولكن ملاك السلام بهزّة واحدة لجناحيه الساطعين سيصعد بروسيّة الى اعالي الكواكب ! بجيش مسيحي واحد ، بكنيسة مسكونية واحدة قد اتحد كل اعضائها في صلاة اخوية ، ستُغلب القوّة المظلمة ، وسيرفع المولى عن جبين روسية اكليلها الشوكي . بحرارة وبدون انقطاع أبتهلُ الى المخلص لكي يفيض في قلوبنا رغبةً شديدة في قطع كل عداوة نحو الكنيسة المسكونية وفي عدم التنقيب والمجاهرة بعيوبها (١ ، لان كل من

١) ليست هذه العيوب في تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وقد وعدها المسيح بالعصمة من

يحكم — وفي الغالب بمجرد الاقوال الفارغة — على الكثلكة ويضرم نار العداوة نحوها ، فبذلك العمل نفسه يمس في عين الملا شرف كنيسته ونفوذها على الرعيّة . ليس المطلوب جعل الكنيسة الروسية لاتينيّة ، فالطقس الشرقي كما كان حتى زمن الانشقاق ، هكذا يلزم بقاؤه . ليس الكلام على شكل الكنيسة الظاهر بل على جوهرها غير المنظور . لعمري اذا لزم في كل مجتمع بشريّ منتظم سلطةٌ واحدة مؤيّدة من الشرائع ، فكم بالاحرى يلزم الكنيسة التي لها المسيح رأسها غير المنظور في السموات — ان يكون لها على الارض ، وهي منظورة فيها ، رأس واحد وشامل لجسمها ، لاجل صيانة وصايا المسيح في نقاوتها والمناضلة عنها في وجه اعدائها . في عدم الاعتراف بهذا الرأس الوحيد خفيت هذه الكبرياء التي أوحت بانشقاق الكنيسة . كل من بايمانٍ عميق وقلب وديع وافكار طاهرة حتى في اعماقها ، وبالرغم من كل المطاعن والحملات والشُبَه الجارحة لحب الذات النبيل ، يسعى الى حيث يقوده الايمان والذمة والشرف ، فانه يسبق التيار الذي سَتَّجه اتجاهه بلا شكّ حركة الذين لم تنضج الى الآن نفوسهم نضوجاً كافياً . أفلا يتضح لكل ذي عينين ان الجليد قد انكسر وان النهر المتجمد قد شرع يتحرك (١ ؟ . . .

من يحوّل الدين الى تجارة وتحت ظواهره يبحث عن مصالحه الشخصية بدناءة سلوكه يهدم قُدس اقداسه ، على انّهُ لا يولج ادنى ضرر او عدم نظام او تهلكة في مقدس الكنيسة ، لانه ليس من خطر على الشجرة القوية المادّة فروعها الى السماء من جهة الشر المتعفن ، فهذا يسقط من الغصن قاطعاً كل علاقة حيوية معه . ان الارادة العظيمة الحكيمة المقدسة تحرّك روسية الجامدة جمود الموت والتعيسة تحريكاً ثابتاً نحو بعثها من الاموات ، نحو اتحادها بالكنيسة المسكونية ، بل عودتها اليها ، وعلى ذلك فمن بايمانٍ عميق طاهر يسبق الحركة العائمة لا يرتكب اثماً انما يصنع مشيئة الله

٨ رأي الكاتبة في قداسة البابا بيوس الحادي عشر

اني اعرف احد المتعشقين لجبال الالب وهو عالم جَسور قضى كل حياته بين

الضلال . انما البيوب توجد احياناً في اعضاء هذه الكنيسة

١) في هذه الثنايه الظريفة الملح واضح الى حركة الاهتداءات الى الكثلكة بين اظهر الروس الارثذكس

الكتب . كان ينفصل نفسه عنها قهراً لمجرّد الذهاب الى الروابي فيتساق المنحدرات القائمة عمودياً المغطاة بالجليد ويذوق لذةً شديدة بان يخلو بافكاره امام وجه الله عزّ وجلّ في جليل سكون الصخور الجليدية حيث لا تصل — وهو في غنى عنها — جلبة الارض الحزينة . امام بياض كفن القمم الدائمة الثلوج كانت تحضر الارض الباطلة تحت ناظريه ، وعليها تنبسط قبّة السماء البعيدة الشفّافة ، وعلى كل ذلك يمتدّ حضور الله . كان هذا الرجل يتسوّر قمماً اعلى فأعلى على منحدرات الاطواد الزلقة ، فيوسّع صدره ليتنشّق في رئتيه هواء الثلوج المتخلّل . ولم يكن اوانشذ في حاجة الى سوى افكاره المتجهة الى اعالي العلم ، وسوى تداني الله . كان محبوباً من اجل طيبة قلبه ونور عقله المستضيء بالتخرّج في المعارف ، ومن اجل روحه المتقدسة بالتخرج في الايمان العميق - بارادة الله قد التزم

فبدلاً من الكتب المستحبّة ، ان يحوّط ذاتهُ بسيلٍ دائم من الناس ، وان يتخلّى الى الابد عن جبال الالب المكسو بالثلوج العزيزة لفؤاده . بدلاً من القمم والآفاق اللامتناهية في السموات القاصية ، وسلاسل الجبال ذوات الصبغة اللازوردية الليلكيّة الفائضة عليها مسحة من لون اللآلئ ، بدلاً من نغمات الشفق الاحتفالية المرافقة بزوغ النجمة الاولى الشاحبة الوجه الوجلة كأنها مصباح الصلاة في زرقة الاثير ، بدلاً من غور الفجر واول اندفاق اشعّته الوردية الذهبية المنعكسة بشكل بلّورات نقيّة من الماس على كتل الجليد التي هي العهود المضطربة الانهيار الباقية الارض السحيقة ، بدلاً من جميع ذلك الحبور الفائق كل تعبير ، الموهوب من المولى للانسان الحرّ ، قد امره المولى بان يسجن ذاته على الدوام في قصور شامخة موحشة كان في غنى عنها ، قصور مرّت عليها الاجيال وفي داخلها قد ملأت يد الزمان بكتابتها صُحف تاريخ الارض المعقّد ، الطاهر طوراً والاثيم تارةً . من كل جانب يحيط به المرمر البارد ، الديباج الفاخر ، الحرير الوردي ، التذهيب والفسيفساء . . . ويضغط على روحه عظم المسؤولية عن الحمل الموضوع على عاتقه ، الذي لا مناص له من ضرورة حمله الى الرمق الاخير . كل افكاره ، كل قلبه وكل روحه من الواجب ان يُسلمها لهذه الخدمة الثقيلة . هو الاسير المحاط بجدران عالية مرّت عليها العصور ، غير المعروف من الجمهور ، هو الذي لا يزال يبارك على البشر ويتضرع من اجلهم ،

وهو لا يستطيع في بعض الاحيان ان يكشف لهم اضاليلهم في تقدير الخير الذي يجتهد في عمله باسم الرب مضموماً الى صلاته وصادراً عن حبه المضطرم للناس . هو المنفرد في جلاله الظاهر الذي روحه في غنى عنه ، هو القابل بتواضع قدح الالسنة في حقه ، هو الطيب والوديع القلب : ذلك الاسير هو البابا بيوس الحادي عشر

« صلي من اجل البابا ومن اجلكِ سيصلّي هو ايضاً » : هذه الكلمات العميقة في محتواها الباطن قالها لي بيوس الحادي عشر . في هذه الالفاظ كثير من التواضع والمحبة والاستسلام الى الوظيفة الكبرى والعسيرة التي قُسمت له . هذا هو الذي عن جهل او عن تحريف اثيم للحقيقة ، يتهمونه بكونه نسب الى ذاته العصمة من الخطأ ثم القداسة ، وهو يطلب من الغير ان يصلّوا من اجله حتى يمنحهُ المولى القوى اللازمة ليسوس بحكمة كل الكنيسة المسكونية ، ويحمل على منكبيه كل المسؤولية عنها . مع ان ميدان القديس بطرس (١ يفصله عن جميع العالم (٢ يلزم بيوس الحادي عشر ان يعرف احتياجات كل العالم المسيحي ، ان يزيل كل زيغان وجميع الاضاليل في وصايا المسيح ، يلزمه ان يحفظ في التوازن كفّات ميازين السياسة ويحتمل بالصمت وتامّ الخضوع لارادة العلي عَكر سيل النسيمة البشرية غير المستخفّة المصوّبة الى الفاتيكان من الشتّامين غير المطّلعين او الحاكمين عليه عن خفّة عقل وتعمّدًا

الناس لا يتوغّلون في معرفة احوال نفس صاحب السلطة . فهذه تظهر جذّابة في عين الذين لا يدركون ان السلطة الممنوحة من الله انما هي حمل ، لان المولى يسلّمها للذي هو خليق بها اعني الذي يفهم بطلان ملاذّها الموهومة ، وفي الآن ذاته يجعل نفسهُ خادماً لها ، خادمَ الواجب الاكبر ، واجب الفرد نحو الجمهور . رائعة هي سلطة الفرد على كل الكنيسة الارضية ، واعظم من الكل هي المسؤولية عن طهارة هذه الكنيسة والنضال في وجه اعدائها العلنيين والمستترين . انه لمؤلمٌ منظر اولئك الناس الذين بطياشتهم القاسية المتادة يرشقون بالحجارة ذلك الذي لم يختلس السلطة وفقاً لرغبة فؤاده ولم يتُق اليها بل هو الحامل بتواضع امام السلطة السماوية ثقل صليب

(١ الميدان الشهير الممتدّ امام كنيسة القديس بطرس ، وقصر الفاتيكان على جانبه الايمن

(٢ من المعلوم ان البابوات المتأخرين ، ابتداء من بيوس التاسع ، لم يخرجوا قط من الفاتيكان احتجاجاً منهم على احتلال واغتصاب حكومة ايطالية الدولة البابوية في ١٨٧٠

السلطة الارضية . قد ثقلت على الخصوص هذه السؤولية في الدور المؤلم الذي نجتازهُ الآن ، دور استيلاء القوة المظلمة على العالم اجمع بقصد جرّ كل ما هو غير الى ملكوت الظلمات

البابا بيوس الحادي عشر يدعو كل العالم المسيحي الى الاتحاد باسم الله ويرسل صلواته الى عرش البارئ ويدعو الجميع الى الصلاة من اجل روسيَّة التي اختطفتها القوى الشيطانية . من الفاتيكان يتدفق بلا انقطاع سيل المعونة المادية للجياع في روسية وخارجاً عنها : فيجمعون الايتام ويكسونهم ويطعمونهم ويعلّمونهم ويدفئونهم ويدللونهم . وفي مقابلة هذا سيل الاحسان المفعم بالمحبة المسيحية ، يتطاير نحو الفاتيكان ليس ابتهال الشكر الحارّ بل النميمة القاسية البلهاء ، تتطاير الحجارة وكُتَل الوحل امع قبول العطايا والاستفادة منها تُرشق الشكايات بفيّات خبيثة : أفهل تستطيع الكنيسة ان تستخدم وسائط الظلمة وهي تصنع الخير باسم الرب ؟

٩ً احسان الاكليروس الكاثوليكي نحو روسية الجائعة المنكوبة

الاكليروس الكاثوليكي يسعى جهاراً في مساعدة الروس ، جهاراً وباسم الله يدعوهم الى الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية . والخير الذي يصنعه يُسيء البعض نشر الدعوة الكاثوليكية ، وقد نسوا انه بمثله قد أُخضع العالم الوثني . فان استحلّ الروس الارثذكس رشقَ الاكليروس الكاثوليكي بالشكوى من كونه باعانته يجذب المُعانين الى الكثلكة ، أفليس ذلك اعظم شكوى على عدم ذمّة الذين يستطيعون بيع دينهم ، فيرشق مثل هذا التجني على الكنيسة الكاثوليكية يمسُّ الراشقون سمعة كنيستهم . من المحال شراء الدينَ او بيعه . وليس من كنيسة — وبالاحرى ينطبق كلامي على الكنيسة الكاثوليكية التي لا يقدر احد على انكار سموّ آدابها — في حاجة الى رعايا اشترتهم بالاصفر الرنّان ، لانه من الواضح لكل انسان ، ولو ذي بساطة خرقاء ، ان من يتاجر بدينه ، اعني بذمته وشرفه ، ليس منها على شيء بتاتاً ، فيسهل عليه التحوّل اياباً الى الارثذكسية بقدر سهولة انتقاله منها الى الكثلكة . اذا اتى الناس الى الاكليروس الكاثوليكي وعجزوا لهُ عن رغبتهم في التخطي الى الكثلكة فمن الواضح انهُ يضمّهم الى الكنيسة الكاثوليكيَّة ، ولكن بعد ايقانه بقدر

الامكان انهم يقبلون الكثلكة عن اقتناع بصحتها . لا احد يستطيع ان يأخذ على نفسه مسؤولية ما هو مستلة شرف وذمّة كل واحد منّا . فلو وُجدت في حالك اضطراب الاعمال الدنسة حوادث إغواء الناس بالمال — ويا لها من فضيحة وزلّة ! — فقد صدر ذلك الفعل ليس من الكنيسة الكاثوليكية بل ممن يستخدمون اسمها لصالحهم . فكل الوحل ، كل الفضيحة والاثم يسقط ليس على هامة الكنيسة الكاثوليكية بل على هام الذين يتضح وجودهم خارجاً عن اية كنيسة . حيث كان البشر فهناك الخطيئة، لقا الكلام ليس على تصرفات اشخاص منفردين الدنسة بل على الكنيسة المسكونية الكبرى التي ينبغي ان يتحد في حضنها ، ليس الّا ، كل المتعطشين الى ملكوت النور والحقيقة ، الى اسقاط السلطة الشيطانية المستولية على العالم ، والى قيامة روسية من الموت ، فانها ستقوم على طريق تقدمة غصن زيتون السلم الى كنيسة المسيح

بعد تحوّلي الى الكثلكة تمكّنتُ من التعارف بالدوائر الكاثوليكية المجاورة للفاتيكان وحيث اني ذات معرفة كافية لاحوال النفوس ، فمن اول وهلة اشعر بادنى تزوير او كذب ، ولو كان مستترًا باكبر مهارة تحت نقاب الاحسان او التمليق . فالحالة هذه اؤكد اني اعدّ نفسي سعيدةً للغاية لو اتّسم ابني في المستقبل بملامح روحيّة شبيهة بالتي عرفتها في الدوائر المذكورة . اني اسمع غير مرّة من اناس ذوي اعتقاد راسخ بالارثذكسية ، ان الكهنة الكاثوليك الصانعين كثيرًا من الخير هم رجال قديسون ، وانّ الاطفال الروس المتهذبين على ايدي الكاثوليك لا يُسامون اقلّ ضغط من قبل مهذّبيهم في المسائل الدينيّة . وفي الآن ذاته ارى هؤلاء القائلين هذا القول يبتعدون عن اولئك الرجال القديسين ويخشون نفوذهم . ليت شعري اين التعقل في ذلك السلوك ؟ لقد طمره في الجيل الحادي عشر فوطيوس وكارولاريوس (١ وخلفاؤهما الذين زرعوا ورسخوا اصول العداوة والبغض لرومة ، وللأكليرس البولوني ، لاغراض سياسيّة محضة ، غذّى الزرع فجعله يتقوّى ويتأصل . الاكليروس الكاثوليكي هو الآن في رفيع المستوى اللائق بدعوته ، والتاريخ النزيه سيُقيد بدون شك على

(١ بطريرك القسطنطينية الذي تم على يده في اواسط الجيل الحادي عشر انفصال الكنيسة الشرقية عن الكثلكة ، وقد كان سلفه فوطيوس بذل الرخيص والغالي دون تلك الغاية فلم ينلح

صحائفه باحرف من النور اسماء واعماله . البابا بيوس الحادي عشر في دعوته اللطيفة لكل الامم الى مساعدة الروس في روسية وهنا (١ لم يخشَ احتجاج اناس اقلّ رحمة منه ، وقد تذكروا خيانة جيشنا للحلفاء التي اوحى بها اليه البلشفيون . في هذا الشأن يُصرّح الروس الارثذكس بانّ كل ذلك الخير مصنوع بقصد ادناء القلوب الروسية الى الكنيسة الكاثوليكية . أجيب ان كل خير مصنوع باسم الله فقد اوحى به والهمهُ المولى ذاتهُ . لا ارى لنفسي حقّ ذكر اسماء اعضاء الاكليروس المجاورين للفاتيكان الذين التقيتُ بهم في رومة ، وقد خلّفوا بروحي ما لن يُمحى من عاطفة اشدّ الاحترام والحب ، فان سامي تثقّف عقلهم يساوي رفيع مناقب قلبهم وايمانهم الديني . هناك نظامٌ شامل يُخرج الى حيّز الوجود نماذج بديعةً للتمدّن المسيحي الخالص . فلو انّ الذين في عداوتهم العادمة الاساس — وهم في الاغلب لم تسنح لهم فرصة التعارف بكهنة رهبانيّة اليسوعيين — يرمون هؤلاء بانواع اللوم الطائش ، لو انهم تمكنوا من التداني اليهم على مسافة قريبة ، لكانوا يخجلون اي خجل من قدح وطعن السنتهم! كم من القلوب العجيبة الطيّبة ، كم من الاذهان النيّرة قد صادفتُ بين اظهر اليسوعيين ، كم من الخير يصنعونه ، كم من التمدن الحقيقي يغرسونه في نسل الشبان! فليبارك المولى عليهم جميعاً جزاء لكونهم عُنوا بعدد غير يسير من الاطفال الروس الاشقياء الذين سيجعلونهم رجالاً مستقيمين ، ويعلمونهم حب الله وحب وطنهم اكثر من ذواتهم

الآن يُرمى الاكليروس الكاثوليكي بغير مؤسّس بالملامة على كونهم يجمعون الاطفال الروس حتى يصيّروهم كاثوليكاً . على ان هؤلاء المُذلّل انفسهم كانوا لا محالة يحكمون عليه بالقساوة لو بقي عادم الرحمة ازاء نصيب اولئك الاطفال الروس الهالكين . يوجد كاهن كاثوليكي يعول بوسائطه الوضيعة عائلة شمّاس انجيلي ارثذكسي لا رزق لها ، ومع ذلك فابناؤها المتهذبون على نفقة ذلك الكاهن يبقون بسلام في الارثذكسيّة ، ولا احد يلقي في ذهنهم فكرة المجاهرة بالايمان الكاثوليكي ان حكم الجمهور دائماً صارم وظالم ان لم يهده الطموح الى صافي ينابيع النفس (٢ .

١) تريد الهتدية فرنسة رفيا كتبت هذه الصحائف

٢) هي الايمان والمحبة لله فوق كل شيء ومحبة القريب ، ايًّا كان ، من اجل الله

اعرف كاهناً ايطالياً برومة هو مثالٌ عجيب للنزاهة ، مملوٌ بالنسيان لذاته والعناية بالروس المحتاجين . كثيرٌ جداً من الروس يعرفون هذا الرجل الساذج المريد خيرهم المستعدّ للصلاة من اجل كلّ منهم ، وللسعي في مصلحة كل منهم من احد اطراف المدينة الى الطرف الآخر ، أمين أياهم بكل ما لديه من الوسائل الوضيعة ، المستتر في ظل الخفاء ، الصانع الخير حسب وصيّة المخلص بحيث لا تعرف يمينه ما تعمله شماله

كان في وُسعي ان اكرّس عدّة صحائف لوصف الجمال الروحي غير المعتاد المتشح به دير راهبات قلب يسوع الاقدس في رومة ، الواقع في وسط تلّ جانيكولو (Gianicolo) العالي والجدير بان يصوّره المصوّرون ، ولهُ حديقة صموتة رحيبة ذات جدول غير منقطع الخرير في مغارته فهو يذكّر بالابديّة . إخالني اشاهد الآن تلك الراهبات الهادئة الوديعة السوداء الثوب ، الخفيفة السير ، الدائمة الملاطفة ، الدائمة الرأفة ببلايا الناس . إخالني اشاهد وزوسهن المستورة بالنقاب الاسود ، المخفوضة للصلاة في كنيسة منفردة بديعة ، اشعر بكل عطر جمال تلك الصلاة الصادرة ممّن أسلمن ذواتهن للمولى ليس لمجرّد التأمل فيه بل ومن اجل المساعدة الحقيقية للبشر

من دفعته الاقدار الى جوار الكثلكة الواقفة عند مذابح المولى ، فانهُ يتوجّع ويخجل عند سماعه كل الاكاذيب المناقضة للصواب التي تُكرَّر عن طياشة على آذان الجمهور الروسي . انه يتوجع لان كل نميمة تخفض منزلة الناطق بها ، انهُ يخجل لان تلك الاختلاقات قد بلغت من الفظاظة والجنون مبلغاً يمنع غفران تكريرها لسوى الذين لم يعرفوا شيئاً ولم يقرأوا شيئاً وما لهم من التخرُّج سوى التزر اليسير

الخاتمة

كل ما كتبته قد اندفق من اعماق فؤادي ، قد اندفق مع الصلاة . مع اتياني العميق بان اليراع الذي خطّ هذه الصحائف قد نال بركة الذي كتبتها باسمه . كان من الواجب عليّ ان افصل ذلك عن عاطفة العدل ، عن عاطفة الصدق ، واني لابذل كل الجهود لكي ترى هذه الصحائف النور . من الاثم ان تُرشق بالحجارة اليد المدودة لصنع الخير باسم الله ، وهكذا من الاثم ان يبقى صامتاً من شاهد ذلك المشهد

اختم هذه الاسطر بمثل ما افتتحتُها به : الغاية من هذا الكتيّب هي إرواء العطش

الى الحب ، الحب اللطيف والواسع كلَّ الناس في رحابته ، إرواء العطش الى السلم إرواء الى النور . لقد فني وفقدَ وخسر شخصيته وجمد جمود الموت عالمنا الارثذكسي . فليس فيه شيءٌ من المآثر النقيَّة ، ليس فيه شيءٌ من الاعمال العظيمة باسم الحقّ المقدَّس ، فليس فيه شيء من مفاخر النفس في سبيل حب الله والانسان . انما نحن طائفة عابسة سيئماها الناس بعد زمن يسير ، نعادي بعضنا بعضاً ، ونجرّ ذواتنا جرًّا على الدرب الفاسد الضيّق ، ولا ندري انفسنا الى اين المسير ومن اجل اية غاية ، ولا يُلقي صوتُنا في الفضاء غناء جهيرًا قادرًا على ايقاظ وهزّ الجمهور الخامد الهمة الفاقد ثقته بذاته لو كان كلٌّ منا يُشعل في قلبه ولو شمعةً صغيرة في سبيل العمل الالهي ، فباي لهيب ساطع كان يستضيءُ كل العالم المسيحي ! في سطوعه الحمرّ كنَّا نرى قبَّة كنيسة القديس بطرس(١ التي اشرق صليبها مدة عشرة اجيال على نفس كنيستنا المنفصلة(٢ . انا بهذا الصليب سنُجندل العدوّ الغاصر روسية بالدم والدموع ، والمندفع كسحابة مهدّدة على العالم اجمع . المدينة المقدّسة الثاوية فيها ذخائر كبيرَي الرسل ، بطرس وبولس ، العزيزة لكل قلب مسيحي ، تدعونا الى نهضة جديدة ، تدعونا الى كامل الاتحاد بواسطة المحبة الاخوية لكي يتقدّس اسم الله عزّ وجلّ ، لكي يأتي ملكوته

وسيكون ذلك لا محالة . باسم المولى اقول ان ذلك سيكون استفتح في احتدام الصلاة قلوب الباحثين عن الحقيقة والسلم ، وستتمّ النبوّة المحتواة في اسم المدينة المقدسة ٣) Roma, Amor — Rim, Mir

تلك النبوّة المشيرة الى حركتين متبادلتين ، حركة رومة الباسطة يد الرحمة والمحبة نحو روسية ، وحركة روسية المقدّمة غصن زيتون السلم الى رومة . بذلك سيذوب مجد

---

١) كنيسة الفاتيكان وهي اعظم معبد في العالم حيث تسع خمسين الف شخص ، وفيها من طرائف الفنون الجميلة ما فيها

٢) تعني ان البابوات الرومانيين خلفاء المسيح على الارض ورؤساء الكنيسة الكاثوليكية سادوا مدة عشرة اجيال على الكنيسة الشرقية التي شقت عصا الطاعة بعد ذلك

٣) Rim هو اسم رومة بالروسية فاذا قُرئت حروفه عكساً تحول الى Mir ومعنى هذه اللفظة بالروسية هو السلم ، كما ان عكس حروف Roma يأتي بلفظة Amor ومعناها باللاتينية الحبّ

روسية الخالد لانّ الرب قال: «طوبى لصُوجدي السلام فانهم سيُدعون ابناء الله».

نادينة دي لبو دانيلفسكيا
باريس في ١٦ تشرين الثاني ١٩٢٣

*

يسوغ لنا بعد هذه الترجمة الطويلة المجهدة ان نريح القلم لولا رغبتنا في زيادة كلمة موجزة تؤيد كبير آمال المهتدية الروسية النبيلة في عودة وطنها الى الكثلكة. المؤيد الاول هو ان الجرائد والمجلات الروسية الارثذكسية قد نشرت في السنين الاخيرة مقالات ضافيات الذيول في الحاجة الماسّة الى الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية ان ارادت كنيسة روسية النجاة من الدمار العاجل، ومثل ذلك الحادث لم يعهد في الصحافة القديمة. المؤيد الثاني هو تكاثر الاهتداءات في روسية بين افراد الامة ولاسيما بين وجوهها كما سبقت الاشارة في تمهيد ترجمتنا، بل ان اهتداء الجم الغفير دفعةً واحدة قد دخل هناك الى حيّز الوجود. ومن اغرب الامثلة على ذلك كون الكاهن الروسي الارثذكسي بوتاپي (Potapi) قد اهتدى سنة ١٩١٨ هو وخمسون الفاً من رعيته في بلدة بُغْدَنُفكا (Bogdanovka) باقليم اوكرانية. وقد تمّ ذلك الارتداد الجمعي الفريد في بابه رغماً من شديد اضطهاد الالمان والبلشفيين المتناوبين الحكم على تلك البقعة. ذلك الحادث هو اجلى دليل على ان الكهنة وبالاحرى للاساقفة السهم الافوز في اجتذاب آلاف مؤلفة من رعاياهم الى حظيرة المسيح الوحيدة. قرّب المولى ذلك اليوم السعيد الذي تنبأ هو ذاته بجلوله حيث قال له المجد (يوحنا ١٠: ١٦): «وحينئذ تكون رعية واحدة وراع واحد»!